

فمثل نوره في بيوت، كمشكاة في بيوت، يكاد زيتها يضيء في بيوت، نور على نور في بيوت، يهدي الله لنوره من يشاء في بيوت، ويضرب الله الأمثال للناس في بيوت، والله بكل شيء عليم في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه...! (١)

وما هي هذه البيوت؟ أهى بيوت الله؟ وهي دون شرعة الله وهدايته ليست لترفع ويذكر فيها اسمه، وإن كان المسجد الحرام، إذ كان مجال المشركين، رجال تلهيهم كل شهوة فضلاً عن تجارة أو بيع عن ذكر الله!

أم هي بيوت الرسالات الإلهية وفي قمتها وقلبها بيت الرسالة المحمدية حيث تحوي الأنوار الأربعة عشر؟ أجل! فبيوت الله إنما تعمّر وترفع ويذكر فيها اسمه ببيوت الرسالات، فهي أفضل من المساجد، حيث الشرعة الإلهية تصدر من تلكم البيوت إلى المساجد وسواها، فبيت الرسالة المحمدية أفضل من المسجد الحرام فضلاً عن سائر المساجد، مهما كان المسجد الحرام أفضل من مسجد الرسول ﷺ إنها بيوت الأنبياء والرسل والحكماء وأئمة الهدى (٢) بدرجاتها، وبيت علي وفاطمة عليهما السلام من أفاضلها، وقد يسأل أبو بكر رسول الهدى يا رسول الله! هذا البيت منها لبيت علي وفاطمة؟ فيجيبه: نعم من أفاضلها (٣) أو «أفاضلها».

(١) تلخيص مع تحرير عما حققه (هنشو) المكتوب عنه في مجلة (هاربر) الأميركية ١٩٣٦ وكما نشرت في مجلات أخرى أيضاً.

(٢) نور الثقلين ٣: ٦٠٨ ح ١٨٤ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة في باب اتصال الوصية من لدن آدم بإسناده إلى محمد بن الفضيل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام: إنما الحجة في آل إبراهيم لقول الله عز وجل: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤] والحجة الأنبياء وأهل بيوتات الأنبياء حتى تقوم الساعة لأن كتاب الله ينطق بذلك ووصية الله جرت بذلك في العقب من البيوت التي رفعها الله تبارك وتعالى على الناس فقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ [التور: ٣٦] وهي بيوتات الأنبياء.

(٣) الدر المنثور ٥: ٥٠ - أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك وبريدة قال قرأ رسول الله ﷺ =

ليس بيت علي وفاطمة وسائر البيت لآل البيت عليهم السلام أدنى من بيوت الأنبياء ولا كبيوت الأنبياء بل من أفاضلها، ولأن الأفضل المطلق هو بيت الرسالة المحمدية - إذًا - فبيت علي وفاطمة من هذا المطلق وكذلك سائر العترة الطاهرة كما يقول عنهم تاسعهم: «خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعرشه محققين حتى من علينا بكم وجعلكم عليهم السلام في بيوتِ أذنِ الله أن ترفعَ ويذكرَ فيها أسمهُ عليهم السلام!»

= هذه الآية عليهم السلام في بيوتِ . . . ﴿ [التور: ٣٦] فقام إليه رجل فقال: أي بيوت هذه يا رسول الله عليه السلام! قال: بيوت الأنبياء، فقام إليه أبو بكر فقال يا رسول الله عليه السلام . . . وأخرجه مثله الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل (ح ١ ص ٤٠٩ ط بيروت) قال حدثني أبو بكر بن أبي الحسن الحافظ أن عمر بن الحسن بن علي بن مالك أخبرهم قال أخبرنا أحمد بن الحسن الخزاز أخبرنا أبي عن حصين بن مخارق عن بحر السلمي عن أبي داود عن أبي برزة قال: قرأ رسول الله عليه السلام في بيوتِ . . . ﴿ [التور: ٣٦] وقال: هي بيوت النبي عليه السلام قيل: يا رسول الله أبيت علي وفاطمة منها؟ قال: من أفاضلها، وأخرج نص المذكور في الدر المنثور بسندين متصلين عن أنس بن مالك وبريدة قالوا قرأ رسول الله عليه السلام . . . ومثله العلامة البدهشي في «مفتاح النجا» ص ١٣ مخطوط عنهما قالوا قرأ رسول الله عليه السلام . . . وفيه «بيت علي وفاطمة» بدون اللام، وابن حسويه يروي في در بحر المناقب ١٨ مخطوط عن ابن عباس قال: كنت في مسجد رسول الله عليه السلام وقد قرأ القارئ عليه السلام ﴿ في بيوتِ أذنِ الله عليه السلام [التور: ٣٦] . . . فقلت: يا رسول الله ما البيوت؟ فقال: بيوت الأنبياء وأوماً بيده إلى منزل فاطمة عليها السلام وروى الثعلبي في الكشف والبيان مخطوط عن أنس وبريدة قالوا: قرأ رسول الله عليه السلام هذه الآية فقام إليه أبو بكر فقال: يا رسول الله هذا البيت منها يعني بيت علي وفاطمة؟ قال: نعم من أفاضلها. ورواه مثله الأمر تسري في أرجح المطالب ٧٥. وفي نور الثقلين ٣: ٦٠٧ ح ١٨١ عن تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: هي بيوت الأنبياء وبيت علي منها، وفيه ١٨٥ عن روضة الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام عن الآية قال: هي بيوت النبي عليه السلام، وفيه عن كتاب المناقب ح ١٨٢ أبو حمزة الثمالي في خبر «لما كانت السنة التي حج فيها أبو جعفر محمد بن علي عليه السلام ولقيه هشام بن عبد الملك أقبل الناس يتساءلون عليه فقال عكرمة من هذا عليه سيماء زهرة العلم؟ لأخزيته فلما مثل بين يديه ارتعدت فرائصه وأسقط في أيدي أبي جعفر عليه السلام وقال: يا بن رسول الله عليه السلام لقد جلست مجالس كثيرة بين يدي ابن عباس وغيره فما أدركني ما أدركني آنفاً فقال له أبو جعفر عليه السلام: ويلك يا عبيد أهل الشام إنك بين يدي بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه.

ومن ثم بيوت الله على ضوء أنوار الوحي من بيوت الأنبياء، هي أيضاً
 من ﴿بُيُوتِ أذنَ اللهُ أن تُرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ...﴾ ﴿وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا
 أَسْمُ اللهِ كَثِيرًا﴾^(١) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾^(٢)
 ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾^(٣).

فالبيت هو محل البيتوتة الريحانة، إن بدنياً فبيت حجر وشجر ومدر^(٤) بمن
 فيه من نساء آمنن ذا ممن يساعدون في تلك الريحانة، وإن روحياً معنوياً فبيت
 هداية وتربية، وقد تعنيه ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ فإنه مثل لنور الهدى، فليس بيت النبي ﷺ
 كمسكن لأهله من هذه البيوت، ولا أهله النساء أهل بيته إلا من القبيل الأول،
 وإنما الثاني محال معرفة الله ومنازل سر الله، ومسكن بركة الله، بيوت حلّ فيها
 أهل الله، وإنما هم هم أهل الله^(٥) وقد أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه من
 مساجد وبيوت الأنبياء، ﴿يَسِيحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ﴿رِجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ تَحَرَّةٌ

(١) سورة الحج، الآية: ٤٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٤.

(٣) سورة الجن، الآية: ١٨.

(٤) نور الثقلين ٣: ٦٠٨ ح ١٨٦ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: وصل الله
 طاعة ولي أمره بطاعة رسوله وطاعة رسوله بطاعته فمن ترك طاعة ولاة الأمر لم يطع الله ولا
 رسوله وهو الإقرار بما أنزل من عند الله ﷻ: ﴿حُدُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]
 والتمسوا البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه فإنه أخبركم أنهم ﴿رِجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ
 تَحَرَّةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ...﴾ [النور: ٣٧].

وفيه ١٩٠ عن الكافي عن أبي حمزة الثمالي قال قال أبو جعفر عليه السلام لقتادة من أنت؟ قال: أنا
 قتادة بن دعامة البصري فقال له أبو جعفر عليه السلام: أنت فقيه أهل البصرة؟ قال: نعم - فقال له
 أبو جعفر عليه السلام: ويحك يا قتادة إن الله خلق خلقاً من خلقه فجعلهم حججاً على خلقه فهم
 أوتاد في أرضه قوام بأمره نجباء في علمه اصطفاهم قبل خلقه، أظلة عن يمين عرشه قال:
 فسكت قتادة طويلاً ثم قال: أصلحك الله والله لقد جلست بين يدي الفقهاء وقدامهم فما
 اضطرب قلبي قدام واحد منهم ما اضطرب قدامك فقال له أبو جعفر عليه السلام: أتدري أين أنت؟
 بين يدي ﴿بُيُوتِ أذنَ اللهُ أن تُرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ...﴾ [النور: ٣٦] فأنت ثم ونحن أولئك فقال
 قتادة: صدقت والله جعلني الله فداك والله ما هي بيوت حجارة ولا طين.

(٥) المصدر السابق نفسه.

وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿١﴾! فهل هم - إذاً - نساء النبي أمّن ذا من أهل بيت المسكن بدنياً؟ كلا! إنهم هم المعنيون بأية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (١) وتصديقه في مواصفاته وأهله:

﴿فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ فمن رفع المساجد تعميرها لعبادة الله، وتطهيرها وإبعاد كل قذارة عنها وكل ذكر فيها إلا ذكر الله، وإن الصلاة فيها تعدل مضاعفات في غيرها أما إذا من ميّزات؟

ومن رفع بيوت الأنبياء أنها تقصد كقبلة للمقبلين السائلين وقد تعنيه ﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبَلَهُ﴾ (٢) وكما الكعبة البيت الحرام قبله المصلين ومطاف الطائفين.

بيوت السكن البدنية لا تحتاج في رفعها إلى إذن، فإنما هي بيوت الهداية لا ترفع إلا بإذن، فليس لأي بيت دعوى الدعوة إلى الله، وأن يُقصد للسؤال عن شرعة الله، إلا ما أذن الله، وهي بيوت النبوة والوحي حيث لا تصدر إلا عن الله، ولا تدعو إلا إلى الله، معصومة عن القصورات والتقصيرات، تلقياً لوحى الله وإلقاءً، وتطبيقاً لشرعة الله، فلذلك ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ على سائر البيوت رفع النار على المنار والشمس في رابعة النهار، مهما كانت بناياتها متواضعة، و﴿أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ تلمح أنها بيوت قبل رفعها، فهي ترتفع بشرياً بجهود متواصلة مستطاعة كأفضل ما يمكن، ثم الله يأذن برفعها في عصمة إلهية!

فبيت النبوة رفيعة على بيت الخلافة، وهي رفيعة على سائر بيوت العلم على درجاتها، وبيوت العلماء رفيعة على سائر البيوت، رفعة الرتبة والدرجة حيث تقصد للسائلين عن شرعة الله!

ف ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ إذن تكويني حيث جعلها معصومة عن الخطأ، ومن ثم تشريعي حيث جعل لها الولاية الشرعية على الآخرين . . .

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣. (٢) سورة يونس، الآية: ٨٧.

ثم ﴿وَيَذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ كذلك الأمر، فذكر اسم الله زماناً ومكاناً ومكانة وكيفية بحاجة إلى إذنٍ من الله دون فوضى كما يريد الذاكرون الله في مثلث القلب واللسان والأركان، تجمعها شرعة الله في كل دقيق وجليل ف «لا قول ولا عمل ولا نية إلا بإصابة السنة».

﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (٣٦) رجالاً... ﴿ترى الغدو والآصال هما - فقط - الإصباح والإعصار؟ ولا يخصهما التسبيح لا في المساجد ولا في بيوت الأنبياء؟ عليهما - بما أنهما ركنا النهار - يعينان ليل نهار، أم لأن الغدو جمع الغدوة والغداة تعني من أول النهار، فهي إذاً تسبيحة مستمرة منه إلى الآصال، وهي جمع الأصيل: القاعدة، ولأن العصر قاعدة النهار نهاية وقاعدة الليل بداية، فالغدو منذ الإصباح حتى الإعصار، والآصال هي منذ الإعصار حتى الإصباح، فالغدو والآصال تعينان أصلي الأوقات بما بينهما، فالمعنى: ليل نهار، تسبيحاً في سائر درجاته.

أو ﴿رِجَالٌ﴾ هل هم الذكور فقط دون الإناث؟ وفيهن فاطمة الصديقة ومريم ابنة عمران عليهما السلام! أم يعنيهما تغليباً لقبيل الرجال كما في ﴿لِيُذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ (١) وقد شملت فاطمة الصديقة! فالرجال الموصوفون هنا أكثر عدداً وأكمل عدداً من نسائهم بأوصافهم، أم تعني رجولة التسبيح بالغدو والآصال رجالاً ونساءً وأطفالاً، فيحیی الذي أوتي الحكم صبياً، وصاحب الأمر عليه السلام الذي ولي أمر الأمة وهو ابن خمس، وجدّه الجواد عليه السلام وهو ابن تسع، هم من ﴿رِجَالٌ﴾ وأرجلهم تسبيحاً، كما وفاطمة الصديقة ومريم الصديقة وأضرابهما هن من ﴿رِجَالٌ﴾ وأرجلهم تسبيحاً، ف ﴿رِجَالٌ﴾ تعني رجولة التسبيح لا - فقط - الذكورة!

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

وقد تعني كما تعنيه ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ مِثْلًا لِمَنْ يَنْتَظِرُ﴾ (١) و﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (٢) و﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾ (٣).

وقد تعني ﴿رِجَالٌ﴾ - فقط - هنا وهناك، دون أناس، سنة التستر في النساء مهما كن معصومات، وأن نور الهدى لا تظهر منهن على رؤوس الأشهاد كما يظهر من الرجال، فلا نبوة ولا إمامة ولا مرجعية ولا قضاء ولا أي منصب جماهيري يؤتى لهن وإن كانت فاطمة الصديقة آمن هي؟.

﴿لَا نُلَهِيمُ بَيْعًا وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ حيث يعيشون ذكر الله، ويتعاملون في ذكر الله، ومهما كانت لهم تجارة أو بيع أماذا من الأشغال الدنيوية، فهي ليست لتلهيهم ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ فلا يلتهمون عن واجبهم تجاه الله: ﴿ذِكْرَ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ ولا عن واجبهم بأمره تجاه الخلق: ﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾، إذ ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾.

وفي مقابلة ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ وهي أفضل ذكر الله، و﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ وهو ذكر عملي لله، في مقابلتهما بـ ﴿ذِكْرَ اللَّهِ﴾ إشعار لموقفهم تجاه الله بذكرين: عام يعم الغدو والآصال على أية حال، في أحوال وأقوال وأفعال، وذكر خاص يعني الصلاة للخالق والزكاة للخلق! ولماذا البيع بعد التجارة وهي تشملته؟ لأن البيع أربح تجارة، فالربح فيه يقين ناجز، والربح في سائر التجارة - من شراء أماذا - مستقبل قد يحول دونه حاجز، فهو في الإلهاء أدخل، فعدم إلهائه عن ذكر الله أعضل، فقد تعني ﴿لَا نُلَهِيمُ...﴾ ألا ملهى لهم في تجارة من سهل وعضل، من محتمل الفائدة ولا مقطوعها، ملهى لهم عن ذكر الله، فهم في شغل عن كافة الملهيات، لا يلتهمون بها في

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٦.

شغلها أو تركها، فإن كان إلهائه لزاماً تركوه كخاصة الملهييات، وإن لم يكن لزاماً تغلبوه، ف﴿لَا نُهِيمُ...﴾ أي مله عما يتوجب عليهم من ذكر الله، وهم يعيشون ذكره دائبين، ومن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة!

فهم هنا يقلّبون قلوبهم عما سوى الله إلى الله، وأبصارهم عن الملهييات إلى آيات الله، فلا ترى بصائرهم وأبصارهم إلا ما يذكرهم الله: «ما رأيت شيئاً إلا وقد رأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه» ولا تحنّ قلوبهم إلى شيء، ولا تكنّ إلا حبّ الله ومعرفته، ولأنهم يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار، فهم يقلّبونها هنا كيلا تتقلب هناك، فهم وافدون إلى ربهم متقلبين إليه ومنقلبين وكما أمروا «موتوا قبل أن تموتوا»!

فالأبصار هي التي تبصر أنوار الهداية الإلهية بصرأً وبصيرة، والقلوب هي التي تتلقى تلك الأنوار، وهؤلاء الرجال هم أصول تلك الأنوار، إذ هم ﴿مَثَلُ نُورٍ﴾ فليكونوا دائبين في ذكر الله، حيث أذن الله لبيوتهم أن ترفع ويذكر فيها اسمه!

ولأن القيامة ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾^(١) بروزاً للحقائق كما هي، فقد تعني تقلب القلوب والأبصار - فيما تعنيه -: أن قلوباً فرحة من الكفار تتقلب إلى فرحة، كما قلوب فرحة للمؤمنين تتقلب فرحة، وتتقلب أبصار منفتحة إلى الشهوات، منغمزة عامية، أو شاخصة خاشعة، وأبصار خاشعة من خشية الله، منغمزة عن حرمان الله، تتقلب منفتحة ناظرة ناضرة.

ثم قلوب حاوية عن اليقين تتقلب إلى يقين، إذ تكشف الغطاء عن أبصارها، دونما فائدة إلا إثبات الحجّة وخوض اللّجة، وأبصار أبصرت إلى الدنيا - دون أن تُبصر بها - فعميت، تتقلب هناك بصيرة تبصر ما عميت عليها.

(١) سورة الواقعة، الآية: ٣.

وقلوب المؤمنين تتقلب إلى يقين أعلى، وأبصارهم إلى بصائر أظهر وأسمى، تقلبات وتقلبات ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(١)! فهناك تقلب لأحوال القلوب من الخوف والرجاء، والسرور والعناء، إشفاقاً من العقاب، ورجاءً للثواب، والأولى صفة أعداء الله، والأخرى صفة أولياء الله.

وكما تقلب الأبصار من تكرير لحظ الكافرين إلى مطالع العقاب وتكرير لحظ المؤمنين إلى مطالع الثواب.

ثم وليست الرجولة ترك البيع والتجارة، إنما هي ألا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله «وإن للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً، فلم يشغلهم تجارة ولا بيع عنه يقطعون به أيام الحياة، ويهتفون بالزواج عن محارم الله في أسمع الغافلين، ويأمرون بالقسط ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنما اطلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه وحقت القيامة عليهم عذابها فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا، حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس ويسمعون ما لا يسمعون»^(٢).

وكما أن نورهم أضوا الأنوار، كالشمس في رابعة النهار في مثلث الذات والأفعال والصفات، كذلك جزاؤهم بين العالمين عند رب العالمين هو أحسن الجزاء:

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٣)

هنالك تقديمات لهم إلهية وبشرية كأحسن ما يمكن، ليجزيهم الله أحسن

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) نور الثقلين ٣: ٦١٠ ح ١٩٢ عن نهج البلاغة عند تلاوته ﷺ ﴿يَجَالُ لَا نُلْهِمِهِمْ يَجْرَةً وَلَا بَيْعٌ...﴾ [التور: ٣٧].

ما عملوا، ف ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ... نُورٌ عَلَى نُورٍ... فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ... يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ... يَخَافُونَ... نُنَقِّلُ... ﴿١﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴿١﴾ ذلك نور أول في الجزاء، ثم ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ نور ثان، فجزاؤهم نور على نور كما هم نور على نور! .

وماذا تعني ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾؟ هل هو الجزاء الأحسن مما عملوا؟ ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعنيه! ثم ولا يعنيه إلا الأحسن مما عملوا لا أحسن ما عملوا، حيث الجزاء بالعمل وليس نفس العمل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نُنَقِّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ ﴿٢﴾ فإنه قبول للعمل الأحسن لا الجزاء فإنه فعل الرب؟ ثم الجزاء يعم الحسن دون اختصاص بالأحسن؟ .

أم يعني أن أعمالهم هي الأحسن وجاه العالمين فإنهم رجال بيت النور، وأحسن ما عملوا هو جزاؤهم حيث الجزاء هو العمل بظهور حقيقته ﴿إِنَّمَا يُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣﴾ بفارق أن السوء يظهر قدره عدلاً والحسن بمزيد من فضله رحمة زائدة .

ثم العمل الأحسن قد يكون مطلق الأحسن كما لرجال النور، أم نسبياً كما ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤﴾ ذلك بأنهم لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُنِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ

(١) إذا فجزاؤهم هو عن ثمانية كعدد أبواب الجنة .

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ١٦ .

(٣) سورة الطور، الآية: ١٦ .

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٧ .

نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴿١﴾ .

فجزاء الأحسن هو الأحسن، وجزاء الحسن هو الحسن ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ثم جزاء السيئ والأسوأ هو دونما زيادة فإنه خلاف فضله وعدله!

رجعة إلى آية النور:

ترى ماذا أراد الله بهذا مثلاً والشمس أمثل الأمثال لأنوار الهدى، فهي أضيق تعبيراً وأشمل تفسيراً لمدى هذه الأنوار؟

أنوار الهدى في أهلها ولأهلها أنور من الشمس في رابعة النهار، فالشمس آفة كل يوم ومكورة أخيراً، ونور محمد ﷺ والمحمديون لا أفول لها ولا تكدير ولا تكوير، ونور الشمس محدودة بمنظومتها وتلكم الأنوار تعم كافة المنظومات فإنها هدى للعالمين منذ وجدوا إلى يوم الدين ف :

«إن الله كان إذ لا كان، فخلق الكان والمكان، وخلق نور الأنوار الذي نورت منه الأنوار، وأجرى فيه من نوره الذي نورت منه الأنوار، وهو النور الذي خلق منه محمداً وعلياً ﷺ، فلم يزالا نورين أولين إذ لا شيء كوّن قبلهما، فلم يزالا يجريان طاهرين مطهرين في الأصلاب الطاهرة حتى افترقا في أطهرين عبد الله وأبي طالب ﷺ» (٢) .

وكيف تمثل المشكاة بسراجها، وهي محدودة، تمثل أنوار الهدى أكثر من الشمس في رابعة النهار؟ إن مشكاة كهذه لا وجود لها في الكون إلا مثالها في الهدى، فأين الزجاج التي كأنها كوكب دري؟ وأين الزيت الذي يكاد يضيء ولو لم تمسه نار؟

(١) سورة التوبة، الآيتان: ١٢٠، ١٢١ .

(٢) سفينة البحار ٣: ٦١٦ - الكافي عن أحمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن عمر بن علي بن أبي طالب عن أبي عبد الله ﷺ قال: